أسماء الشخصيات في الرواية الجزائرية العربية المعاصرة بين الأدبية والايديولوجيا ، رواية : «ضمير الغائب أو الشاهد الأخير على اغتيال مدن البحر» للأعرج واسيني ، ورواية «الفجوة» لحفناوي زاغز ، نموذجا[*]

بقلم : إبراهيم صحراوي
- جامعة الجزائر

الأدب فن من فنون القول ، توفر أنواعه المتعددة - ولا سيا القصصية منها - بأشكالها المختلفة للمبدع امكانيات لا تحد لإيصال فكرته وتبليغ خطابه .

والشخصية أساس مهم من أسس العمل الأدبي ، القصصي على الخصوص إذ يصعب تصور أحداث رواية أو قصة أو مسرحية بدون الشخصيات تقوم بها أو تتلقاها ، ولذا كانت «من نقاط الارتكاز التقليدية للنقد الأدبي (...) قديمه وحديثه[1] .

وهي بناء فني متكامل يتوزع عبر النص يتكون بتكونه وينمو بنموه ، ضمن ما يعرف بـ «السمة الدلالية»(etiquette semantique)[2] . التي هي مجموعة العلامات والخطوط المميزة التي تنشأ من «تقاطع او التقاء مستويين سردي وخطابي»[3] وإسم الشخصية هو أهم هذه الخطوط . ذلك أنه يؤمن ثبات العلامات التي تسند لهذه الشخصية أو تلك وهو الدعامة الأساسية التي ترتكز عليها لذا فإن أسماء الشخصيات في الأثر الأدبي تبعد (في أكثر الأحيان) عن أن تكون اعتباطية[4] لأن المؤلف يختارها عن قصد وعن سابق اصرار وتصميم ، ويحملها معاني ودلالات تندرج في السياق العام لمعنى الأثر ، ان لم تكن هي مدار المعنى كما هو الحال في مثالينا المختارين : رواية «ضمير الغائب أو الشاهد الأخير على اغتيال مدن البحر»[6] للأستاذ واسيني الأعرج ، ورواية : «الفجوة»[7] للأستاذ حفناوي زاغز .

ولعل أهم دافع لاختيارنا هاتين الروايتين هو الرمزية الصارخة لأسماء شخصياتها ، والدلالة الايديولوجية أو السياسية التي تكتسبها ، هذه الشخصيات تبعا لذلك . سيما رواية : ضمير الغائب ، وهي دلالة يستوجب الكشف عليها عدم الاكتفاء بالدلالة الفنية للآثر التي يمكن استخلاصها عبر التحليل الذي يكشف عن العلاقات التي تقوم بين مختلف مستوياته ، وتلك التي تقوم بين أجزاء المستوى الواحد ومكوناته بل اللجوء الى البحث عن «المعنى الخفي أو المستتر الذي لا ينكشف ضرورة بمجرد إزالة العقبات»[8] بل يستدعي ذلك من الناقد «تأويل هذا المعنى المستتر الذي قصد إليه الكاتب أم لم يقصد»[9] وهو ما سنجد أنفسنا منساقين إليه بعد توضيحنا لأهم المكونات الوظيفية والخطابية لأهم الشخصيات في الروايتين سيما في «ضمير الغائب» لنصل كما سنلاحظ فيما بعد الى أن الدلالة الايديولوجية فيها تتبع من توظيف مؤلفها للدلالات التاريخية الدينية لإسمي شخصيتيها الرئيسيتين : المهدي بن محمد وابنه الحسين : معتمدا في هذا التوظيف على مدى «مشاركة القارئ في الثقافة (التي تؤطر) هذه الدلالات»[10] وهذه المشاركة هي المسؤولة عن مقروئية الشخصية ، ذلك أن الدلالة الايديولوجية التي ارادها عن قصد أو عن غير قصد تتكئ بشدة على هذه الدلالات الثقافية . فجاءت قراءته عبارة عن رفض للواقع وتنبؤ بالمستقبل بأدوات من هذا الواقع (الحاضر) لكنها تضرب بجذورها في الماضي بعمق . وهنا سر التناقض في رأينا ، فالمؤلف يقرأ الواقع ايديولوجيا برموز من هذا الواقع الذي يرفضه بل أن مرجعيته الايديولوجية لا تعترف بهذه الرموز وتعتبرها سببا من أسباب تدهور الواقع المرفوض وهو ما حدا بنا الى التساؤل في ثنايا البحث عن مدى توافق أو تناقض روحية هذه الرموز ومادية المرجعية الايديولوجية التي وظفتها .

وقبل أن نشرع في تحليلنا للنصين المقترحين ، نورد هنا تعريفين للايديولوجية يتضح بهما السياق العام للبحث في صورة ما ، مع لفت النظر الى تركيزنا على الرواية الأولى دون الثانية لأن دلالة أسماء شخصيات هذه الأخيرة تبقى ايديولوجية عامة أو محايدة ان صح التعبير . فمن مفاهيم الايديولوجية كونها «التعبير في لغة عادية عن الأفكار الفلسفية أو الدينية أو السياسية كما عن الأشكال الأدبية»[11] أو هي نسق يهدف الى تنظيم العلاقات داخل مجموعة ما .. بين أفراد المجموعة وأقاربهم وبينهم وبين الرمزي وبينهم وبين الآلهة[12] ونشير الى أن رواية ضمير الغائب ، تتقاطع مع قصة «الشهداء يعودون هذا الأسبوع» للقاص الجزائري الطاهر وطار في مبدأ عودة الشهداء وإن كانت قصة وطار قد توقفت في الواقع عند حدود افتراض العودة وتتقاطع أيضاً

مع رواية الزلزال للكاتب نفسه في مبدأ ذبح الشيوعيين أثناء الثورة التحريرية ، كما نشير بداية الى جو الغرابة المحيط بالروايتين سواء أكان ذلك من حيث عودة الشهيد ... وانبعاثه حيا ، أم من حيث المصادفات الغريبة التي تصادف شخصية ما مما يدفعنا الى الاعتقاد بأن المؤلف يعتمدها مثلما هو الشأن بالنسبة لعمرو في رواية الفجوة .

1 - عرض الرواية :

الحسين صحفي شاب ، يحرر بصحيفة المدينة زاوية بعنوان : «من الأرشيف» ينشر فيها تحقيقات عن الشهداء . يقترح على رئيس التحرير بلقاسم بمناسبة عيد الاستقلال مشروعاً للتحقيق عن المستشفى التجميلي بالمدينة يرفض المسؤولون هذا المشروع فيقترح عليه مشروعاً آخر كان فكرة تراوده منذ أمد طويل . القيام بتحقيق عن والده الشهيد المهدي بن محمد يوافق رائيس التحرير على المشروع مبدئياً إلا أنه ينبه الحسين مع ذلك الى أن جدية تنفيذه تبقى مرهونة بموافقة المراجع العليا عليه إلا أنها ترفضه بقوة هو أيضا ، وتحاول عبر رئيس التحرير أن تثنيه عنه ملوحة بإمكانية تحويله الى صفحة الاعلانات أو الوفيات ، الشيء الذي يدفع بالحسين الى الاستقالة والاصرار على التحقيق سيما وأن أموراً غامضة كثيرة تحيط بوفاة والده الأمر الذي صعب من مهمة «عيشة المنورة» والدته في اثبات استشهاده ، ويرى أنه مع هذه الغوامض شهيد كغيره من الشهداء الآخرين وله الحق في تحقيق ينشر عنه .

في المساء يعود الى الفندق حيث يقيم متعبا مكدودا يحلم حلما مزعجا ، فينطلق في مناجاة المهدي الذي تزين صورة له ضمن إطار أحد جدران الغرفة . ثم يحدث شيء غريب تخرج الصورة من الاطار ، ينبعث المهدي حيا ، متجسداً في صورته الآدمية بعد لحظات الخوف والدهشة ، ينطلقان في حديث يتبادلان فيه السؤال عن الأحوال والتعليق عن الأوضاع ، يخبر فيه الحسين والده بأنه ينوي إجراء تحقيق عنه يجلو من خلاله ظروف موته . يباشر هذه المهمة انطلاقا من أرشيف الجريدة وتعليقات صحف فترة الاستشهاد عن النبإ ، فيلاحظ تباينها في كيفية ايرادها للحدث وفي تعليقها عليه ، الشيء الذي يثير بذهنه نقاط شك تشوه بصورة ما صفة الشهيد في والده الذي ينبري للدفاع عن نفسه في الليلة الموالية أثناء تجسده الثاني ، محاولاً تبديد الشك ومتهما الآخرين بظلمه وظلم زملائه من المنتين الى «المقاتلون من أجل الحرية C.P.L وهو الاطار الذي شارك ضمنه الشيوعيون الجزائريون في الثورة التحريرية ، ومحاولا

أيضاً شرح الغموض المحيط بوفاته - أو بالأحرى ذبح زملائه المجاهدين له - ونافيا عن نفسه وعن الشيوعيين تهمة الخيانة التي برر بها الذبح ، رادا اياها الى خطإ في تقييمهم للوضع والى أفكار الآخرين المسبقة عنهم ، والواقع أن هذه التبرير الذي أورده المؤلف على لساني شخصيتيه الأساسيتين هو ما يطالعه المرء في بيانات الشيوعيين الجزائريين وأدبياتهم في تفسير موقفهم ذاك الى يومنا هذا ، إثر ذلك يكلف المهدي ابنه بإنجاز تحقيق عن أناس كثيرين كان يعرفهم ، فينطلق في القيام بالمهمة متنقلا في سبيل ذلك بين أماكن عدة في المنطقة لتفرقهم . ثم يرجع الى المدينة ويتحايل في استعمال أرشيف الجريدة ، لكن الميوني المسؤول عنه ، تفطن الى حقيقة استقالته عكس المرة الأولى ، فتنازل له مكرها عن ساعته الثمينة لأنه كان بحاجة الى توثيق المعلومات التي جمعها والى ادراك علاقاتها ببعضها البعض والظروف المحيطة بأصحابها ..إلخ ، ليغادره (الأرشيف) قرابة منتصف الليل فتلقي عليه دورية للشرطة القبض وتسوقه بمعية مجموعة من السكارى والمشردين الى المخفر حيث يحرر له محضر يسجل فيه ضبطه مع إمرأة الشيء الذي لم يحدث لكن رئيس المخفر يهون عليه الأمر مفهما إياه بأن مخالفة بسيطة كهذه لن تكلفه شيئاً أحسن من أن تكتب ضده أشياء أخرى ثم ينصرف عائداً الى غرفته حيث يجد المهدي بانتظاره ، فيشرعان في التعليق عن الحادث وعن المعلومات التي جمعها عن الأشخاص موضوع تحقيقه ، فقد اكتشف أشياء كثيرة وسجل عنهم تصرفات وسلوكات متعددة تتعارض حسبها تماماً وما كانوا يقاتلون من أجله وتتنافى مطلقا - حسبها دائما - وأمانيهم وعهودهم ومواثيقهم قبل الاستقلال ، فمنهم من لم ينل شيئاً واستمرت حياته على المنوال ذاته الذي كانت عليه قبلا ، ومنهم من نال أكثر مما يستحقه ، ومنهم من أضاف الى المنافع الكثيرة الانحراف عن الخط المرسوم ، مع أن من هؤلاء المنتفعين من لم يلتحق بالثورة عن اقتناع أصلا ، بل كان ذلك نتيجة لحوادث شخصية ، مثلما هو الحال بالنسبة لـ عبد القادر مثلاً أو حميدو ، لكن الملاحظ على هذه الشخصية أنها تتداخل في النهاية مع شخصية أخرى هي شخصية سي الجيلالي وهذا التداخل في اعتقادنا - خلل في الرواية لم ينتبه له المؤلف - ففي الجزء الثالث من الفصل الثاني تفيد المعلومات أنها شخصيتان مستقل كل منهما عن الأخرى ثم نفاجأ به في الجزء الأخير من الفصل الثالث ومن الرواية معا يجعل المهدي يحدثها وكأنها شخصية واحدة ، إذ يبدو عندها أن رئيس المحكمة سي الجيلالي الذي قال عند أن سافر الى ألمانيا ولم يعد[12] هو نفسه سي حميدو ذلك أن هذه التسمية الأخيرة هي إسمه الثوري ويصلان في نهاية الأمر الى نتيجة مفادها أن

الشهداء في شخص المهدي يندمون أحياناً على استشهادهم وأنهم يشعرون بالمجانية ذلك أن التفاصيل السيئة غيبت الشيء الذي ماتوا من أجله وأنهم يسيرون الآن عكسه بعد ذلك ينجح الحسين وساسافندا صديقته التي تشتغل في العاصمة وخطيبته المحتملة - تعرف عليها بعد فقدانه لمريم حبيبته الأولى لم ينسها ولم يبد عليه أنه سينساها - في التسلل الى المستشفى التجميلي بالمدينة بواسطة وثيقة «أمر بمهمة» مزورة ، والطواف بمختلف أجنحته مصوراً كيفية تحويل الأعضاء المؤمنة للحواس المتعددة للإنسان سيما الأنوف منها والعيون والآذان والأمخاخ . وبديهي أن المستشفى التجميلي ووظيفته هنا رمز لدلالات تتجاوز ظاهر اللفظ سنتحدث عنها ورموز أخرى كثيرة لاحقاً .

وفي المساء بعد عودته الى البيت وبعد حوار له مع صديقته تداهمه الشرطة وتلقي عليه القبض ، ذلك أنه كان في الواقع متابعاً ومراقباً منذ أمد طويل ، ويباشر معه تحقيق حول أشياء كثيرة بحثاً عن المهدي وعن أمره إياه بالتحقيق عن زملاء قدماء الى غير ذلك ، وفي انتظار تقديمه الى المحاكمة يلقى به في زنزانة يتجسد له فيها المهدي ويدور بينهما حوار أخير ، يعلقان فيه على نهايتيهما ويناقشان هاتين النهايتين وفي معرض هذا التعليق يوصي المهدي ابنه بعدم اليأس مع علمه بأنه لن يكون في مستوى قوة الخصم مهما أوتي من قدرة لأن هذا الخصم هو نفسه الحكم وفي قاعة المحاكمة تسأل هيئتها المستعجلة الحسين مرة أخرى عن حقيقة ما كان قد سئل عنه سابقاً مما نسب إليه ، وأمام امتناعه عن الأدلاء بأي شيء رداً عن هذه الأسئلة تصل الى ملاحظة ورم بمخه - وهنا أيضاً تعبير رمزي - فيتجه الرأي الى إخضاعه لعملية ينتزع فيها هذا الورم ليتمكن من الكلام . وحينما يقر عزم القاضي على ذلك مبرراً اياه باحترامه للشهداء الذين استعطفه بهم المحامي تحدث المفاجأة ... يتجسد المهدي مرة أخرى - وقد كان الإطار الذي يضم صورته بين ثياب الحسين الموضوعة فوق مقعد بقفص الاتهام لأنه كان يقف عارياً أمام المحكمة - وأمام اندهاش الحضور وخوفهم بما فيهم هيئة المحكمة ، يرافع كاشفاً زيف حقيقة الرئيس وتلاعبه - هو وغيره - بالشهداء ومتاجرتهم بأسمائهم واخلافهم للوعود والعهود إلخ ... فهو لم يلتحق بالثورة إلا عن خوف أجيره على ترك مقاعد الدراسة . وهنا يحدث التداخل المشار إليه آنفاً بين شخصيتي سي الجيلالي وحميدو ، وتصبحان شخصية واحدة بعد المرافعة ، يتحول المهدي الى نار حارقة تفجر زجاج نوافذ القاعة لتتحول الى نجمة صغيرة أخذت مكانها وسط مئات آلاف الأنجم التي تضيء ليل المدينة .

وتنهي هيئة المحكمة الجلسة بتأكيد حكمها السابق بإحالة الحسين على المستشفى التجميلي لاستئصال الورم والزوائد الأخرى كي تجري المحاكمة . وبذلك تنتهي الرواية . وفي تمهيد صدره به المؤلف نقرأ أن الجريدة تنشر خبر إرسال المهدي الى باريس واعدة القراء الذين استفسروا عن غيبته بعودته بعد شفائه من الداء الذي أصابه في الدماغ .

2.1 – في السرد :

سرد علينا الراوي الأحداث بضمير المتكلم وهي الصيغة الأكثر مناسبة لكل خطاب يود صاحبه فلسفة الأشياء فلسفة أحادية الجانب والنظرة أو أدلجتها – ان جاز لنا الاشتقاق – كما هو الحال في هذه الرواية حتى وإن أعطى فيها الكلمة للشخصيات الأخرى مثلما هو الشأن مع المهدي مثلاً . لذلك فمجال الرؤية هنا محدود أو مقيد برغبة الراوي . فلن نرى كقراء إلا ما يريد هو ولن نعرف إلا ما يريد تعريفنا به سيما وأنه هو الشخصية الرئيسية في الرواية – ولعل كونه كذلك هو ما أدى الى تأرجح السرد مرات عديدة الى ما يشبه المناجاة – أو الخطاب المباشر[13] تتغير فيها صيغة الضمير من متحدث الى مخاطب أحياناً لما يحدث الراوي الشخصية نفسه عارضاً أفكاره . باسطاً أحاسيسه ومشاعره وآراءه هذا إضافة الى الحوارات المتعددة الأطراف (يكون هو طرفاً مميزاً فيها في كل الحالات) كما أنه يتوقف مراراً (السرد) ليفسح المجال للوصف لما يغتنم الفرصة لتحديث القارئ عن شيء ليس بإمكان السرد وسعه كشأنه في تعريفه بالشارع الذي يحمل أسم أبيه في المدينة وذكر بعض تفاصيله من أبنية ومعالم وساكنين وحرف تنبيء عن المعاناة اليومية التي تجدها بعض النماذج البشرية من الشرائح الاجتماعية المسحوقة في تحصيل الحد الأدنى من ضروريات الحياة ، أو في وصفه لبعض الشخصيات وتعليقه عليها ، أو ايراده لجزئيات لا تدخل في صميم الحديث إلا أنها تدور في فلكه . كمعاناة «عيشة المنورة» في سبيل تحصيل قوت الأبناء وفي سبيل إثبات إستشهاد المهدي ، أو تحسر البوحفصي زميله على موته وألمه للصورة التي انتهى بها ، أو تكرار حمو المجنون لجملته التي تتواتر كاللازمة في الأغنية أو النشيد ، «خسارة الدم اللي ضاع» إلخ ...

وشبيه بهذا الانقطاع الذي يحدث على مستوى صيغة السرد وحركيته ذاك الذي يحدث على مستوى التسلسل الزمني لجزئيات الحدث متمثلاً في تنقله من الحاضر الى الماضي كاسترجاع الحسين مرات عديدة لصور علقت بذاكرته من مرحلة فتوته كتلك التي تذكره بيتمه أثناء إقامته

بداخلية الثانوية إذ يفد أباء زملائه الطلاب لمصاحبتهم الى البيوت في عطل نهاية الأسبوع ، أو تلك المتعلقة ببعض تفاصيل علاقته بمريم . ومن ذلك أيضاً استرجاع المهدي لتفاصيل نهايته وبعض الظروف المحيطة بها .. إلخ . وهناك الوجه الآخر لهذا الانقطاع وهو الانتقال من الحاضر الى المستقبل في استباق للأحداث متوقعين ومتنبئين بما سيحدث سواء أكان ذلك في المستوى الشخصي أم في المستوى العام (الكسوف) ...

3.1 - البنى الوظيفية للشخصيات :

الشخصيات المذكورة بأسمائها في الرواية هي :

- الحسين بن المهدي بن محمد الصحفي بجريدة المدينة .
- المهدي بن محمد والد الحسين (شهيد ؟) ينتمي الى فرق «المقاتلون من أجل الحرية» الإطار الذي حاول الشيوعيون الجزائريون المشاركة ضمنه في الثورة التحريرية .
- عيشة المنورة والدة الحسين .
- بلقاسم رئيس تحرير الجريدة التي يشتغل بها الحسين .
- الميموني مسؤول أرشيف الجريدة .
- ساسافندا صديقة الحسين وخطيبته المحتملة .
- مريم حبيبة الحسين وخطيبته السابقة .
- البو حفصي أحد أصدقاء والد الحسين .
- حمو مختل عقلياً يقضي يومه في التسكع عبر شوارع المدينة وتكرار جملة «خسارة الدم اللي ضاع»
- سي الجيلالي مجاهد سابق ورئيس هيئة المحكمة .
- خيرة بائعة الخبز في شارع المهدي بن محمد ، صالح زوجها المتوفى ، كريمو ابن بلدة الحسين ... وغيرهما .

أما الشخصيات غير المذكورة بأسمائها فهي كثيرة نجملها في :

- «المسؤولون» في كل المستويات وفي كل المجالات .
- «الآخرون» غيرهم .

نلاحظ أن الشخصيات العاملة الأساسية في الرواية هي : الحسين ، المهدي من جهة ،

والمسؤولون من جهة أخرى بما فيهم بلقاسم ، رئيس المخفر ، ساسافندا ، رئيس المحكمة ، وغيرهم . فالحسين يبدو منذ الوهلة الأولى صاحب برنامج يود تحقيقه . فهو إذن فاعل محتمل لهذا البرنامج الذي تمثل في رغبته في انجاز تحقيق عن المستفى التجميلي بالمدينة تتظهر فاعليته إذ يقطع أولى الخطوات في سبيل تحقيقه لما يقترح ذلك على مسؤوليه المباشر بلقاسم لكن هذه الفاعلية لا تتحقق لأن بلقاسم رفض البرنامج أو بالأحرى عبر عن رفض المراجع العليا له . وهو الرفض الذي يظهر وجهاً من أوجه اهتزاز الثقة بين القمة والقاعدة فالأولى تخاف الثانية وتحذرها رغم تحكمها فيها . والثانية تخاف الأولى هي الأخرى وتعرف زيف مشاعرها نحوها ، وتسخر منها محاولة التعبير بهذه السخرية عن الحقيقة المعكوسة لما تحاول إظهاره من اهتمام بشؤونها وتفان في خدمتها .

فشل هذا البرنامج في الواقع لا يثني الحسين إذ يفكر في برنامج آخر : انجاز تحقيق عن المهدي وتعريف الجمهور بهذه الشخصية . يصبح فاعلاً متظهراً في مسيرة إنجاز هذا البرنامج أيضاً لما يطلب الضوء الأخضر من رئيس التحرير . واذ يرفض مرة أخرى البرنامج الثاني يتجاوز الحسين هذا الرفض ويحقق فاعليته باصراره على انجازه والإستقالة من الجريدة في سبيل ذلك .

وينجح في السير به الى نهايته عبر استعماله للأرشيف بمساعدة الميموني الذي لم يعلم بخبر الإستقالة من جهة . والمهدي نفسه من جهة أخرى سواء بحثه له في التجسد الأول ، وطلبه من الحسين في التجسد ذاته جمع معلومات عن زملاء له يعرفهم . هذاا الجمع الذي هو (برنامج رديف) يساعد على إظهار حقيقة المهدي من ناحية وحقيقة «المسؤولون» من ناحية أخرى يمكن دمج هذين البرنامجين (التعريف بالمستشفى التجميلي) ضمن برنامج أوسع هو البحث عن الحقيقة وكشفها للجمهور (القراء ، قراء الجريدة) واذا كان الأول قد رفض إبتداء فإنه قد عاد إليه إذ نجح بمعية ساسافندا في التسلل الى داخل المستشفى بواسطة الوثيقة المزورة .

باكتشافه لحقيقة موت المهدي وحقيقة المستشفى التجميلي ، يكون الحسين قد أنجز الشطر الأول من البرنامج العام . البحث عن الحقيقة ، وبالتالي يكون فعله هنا انعكاسيا فقط[14] لم يتعد حدوده هو ، ويبقى الشطر الثاني . كشف هذه الحقيقة للقراء دون تحقيق لأن عدم التحقق هذا في الواقع نجاح لبرنامج الجهة المقابلة «المسؤولون» وهو برنامج مضاد لبرنامج الحسين (منعه من البحث عن الحقيقة وكشفها) وقد حاول هذا الفاعل الجمعي إنجاز ذلك مرات عديدة .

- في الشطر الأول ، بواسطة بلقاسم ، ساسافندا ، رئيس المخفر ...
- في الشطر الثاني ، بالإضافة الى هؤلاء المحققون ، هيئة المحكمة ...إلخ .

في المستوى الوظيفي اذن نرى أن الحسين والمهدي فاعلان متحققان في شطر من البرنامج العام (الشطر الأول ، البحث عن الحقيقة) .

- الحسين فاعل منجز مؤهل بالرغبة في الفعل .
- المهدي فاعل مساعد مؤهل بالمعرفة في الفعل .
- أما «المسؤولون» فهم فاعل مضاد للفاعلين السابقين يتحقق في الشطر الثاني من البرنامج العام ، المضاد على الشكل التالي :
- فاعل منجز مؤهل بالقدرة على الفعل . المتمثلة هنا في (القوة) التي تدعم المؤهلين السابقين .

الرغبة/المعرفة (الرغبة في ابقاء الوضع على ما هو عليه ومعرفة تحقيق ذلك باستخدام القوة) .

4.1 - البنى الخطابية والأدوار الغرضية :

ننظر الآن في الجانب الوصفي التأهيلي للشخصيات ، ونركز على الحسين والمهدي ومريم وعيشة المنورة من جهة ، وعلى ساسافندا والمسؤولون من جهة أخرى .

أول ما نلاحظه على الدلالات اللغوية لأسماء المجموعة الأولى انها راقية عموماً .

- الحسين : «مثل الحسن يقالان باللام على ارادة الصفة»[15] صفة المسمى بها وهو الحسن الجميل ضد القبيح ونقيضه .
- المهديّ : أي من هداه الله[16] وهو اسم مفعول للفعل هدى ، يهدي .
- عيشة المنورة : اسم مركب من (عيشة) مصدره مرة للفعل عاش و(المنورة) ذات الأنوار إسم مفعول من نور ، ينور .
- مريم : إسم امرأة ذو أصل سرياني ومعناه المرتفعة[17] .
- ساسافندا : لفظة ذات أصل إسباني أو برتغالي تطلق في بعض مناطق الغرب الجزائري على نوع من الفلفل صغير ورقيق لكنه شديد الحرارة .

أول سؤال يطرح نفسه علينا هو : هل طابقت الشخصيات مسمياتها ؟

بمعنى هل حققت مقرؤيتها ؟ للإجابة على ذلك ، نجد أنفسنا مضطرين الى استخلاص بقية عناصر «السمة الدلالية»[18] لكل شخصية على حدى ، وهي : «العلامات المتفرقة في النص (...)

تتحدد خصائص هذه السمة بالاختيارات الجمالية للمؤلف[19] وبديهي أن مصدر هذه العلامات هو النص . واذا كان الإسم كما أشرنا الى ذلك سابقاً هو أساس هذه السمة والإطار الذي تندرج ضمنه فلانه يمثل أهم الخطوط المميزة للشخصية .

تتضح ملامح السمة المعنوية عبر تدرج النص في مسيرة تشكله من البداية الى النهاية . فينتج هذا التدرج صفات وخصائص تسند الى هذه الشخصية أو تلك في «تراكم صوري»[20] يؤدي الى بروز أدوار غرضية للشخصية في المستوى الخطابي تأتي امتداداً لأدوارها السردية الوظيفية[21] .

نجمل في الجدول الموالي الأدوار الغرضية للشخصيات السابقة

الشخصية	الأدوار الغرضية
الحسين	البائس ، المصر ، المعائد ، نظيف ذات اليد ، الطيب المظلوم ، المخيف (بفتح الميم) المتعب ، المتعب ، الفقير ، المجد ، العامل ، المثابر .
المهدي	المخين (إسم مفعول من خان/يخون) ، المظلوم ، المفترى عليه .
عيشة المنورة	المظلومة ، الفقيرة ، البائسة ، الكفيفة ، الكادة ، المجتهدة .
ساسافندا	الحارقة ، الكاوية (إسم فاعل من كوى يكوي) .
المسؤولون	الأغبياء ، المهربون ، المزورون ، المداهنون ، القبيحو الأشكال .

نلاحظ أن الحسين والمهدي من المجموعة الأولى يحققان مقروئيتهما في بعض مكونات سمتيهما الدلاليتين المذكورة .

أمم عيشة المنورة فهي ضد صريح لاسمها ، فليس في معيشتها ما يثر أنواراً بل ان كل ما فيها ظلام وشقاء . والملاحظ أنها ومريم لم تشتركا في أحداث الرواية في مستوى حاضر السرد ، إلا أن الراوي/الشخصية ما انفك يستحضر طيفهما ويذكرهما .

شخصيات هذه المجموعة تتعارض عموماً مع شخصيات المجموعة الثانية ، ساسافندا «والمسؤولون» فساسافندا هي النقيض لمريم ، تحقق مقروئيتها بصورة معاكسة لها ذلك أن شكلها وهيئتها من جهة وتصرفاتها من جهة أخرى كانت دائماً مصدر قلق للحسين عكس مريم التي كانت مثارا للراحة لديه في كل شيء .

4.1 - القراءة الإيديولوجية للشخصيات :

بعد أن أوضحنا الآن جانباً من جوانب السمة الدلالية للشخصية تندرج ضمن دلالتها المباشرة الفنية (أو اللفضية إن صحت الترجمة(litteralite)[22] ننتقل الآن الى دلالتها المؤولة التي تتكئ على المقاييس الثقافية والجمالية التي اعتمدها المؤلف ولن نستطيع التوصل الى استقرائها للوصول الى هذه الدلالة العميقة التي حكمنا بإيديولوجيتها ، أي بانضوائها ضمن سياق فكري معين له منظوره الخاص للأشياء دونما لجوء الى التفسير والتأويل لتفسير النص والعلاقات المختلفة التي تربط بينها .

ترتكز الدلالات الإيديولوجية لشخصيات رواية واسيني الأعرج التي نحن بصددها على الجانب التاريخي والديني لأسماء بعض هذه الشخصيات ودلالالتها في هذا المجال . فالحسين هو حفيد الرسول ﷺ وهو الإمام الذي رفض بيعة يزيد بالخلافة ، وبايعه أهل الكوفة ثم غدروا به ، فكان أن قام لاسترجاع حقه في الخلافة ، ثم قتل في واقعة كربلاء سنة 61هـ إذ أبى الإستسلام . فهو في هذا السياق رمز للحق المغتصب بالقوة المجسدة في صنيع بني أمية بقتلهم الحسين وأولاده وعائلته (وسبيهم) وهضمهم للحقوق السياسية لآل البيت وأحقيتهم بقيادة المسلمين وحكمهم لهم بحكم قرابتهم من سيدنا محمد ﷺ .

أما المهدي فهو موضوع الفكرة التي هي من المكونات الفرعية العقيدية للإسلام فهو الإمام المنتظر لدى المسلمين - على اختلاف بين السنة والشيعة في التفاصيل - الذي بشر الرسول ﷺ بمجيئه في آخر الزمان والذي سيخلص البشرية من أدرانها قبل قيام الساعة .

اعتمادا على هاتين الخلفيتين التاريخية والدينية يمكننا قراءة الدلالة الإيديولوجية للشخصيتين في الرواية . فهما لم تبقيا معارضتين فقط . بل تؤطر معارضتها هذه ضمن سياق ايديولوجي معين يمكن الاستدلال عليه بسهولة هو الشيوعية ، على أساس أن المهدي كان عضواً بالإطار الذي أحدثه الحزب الشيوعي الجزائري أثناء الثورة التحريرية ليشارك فيها ضمنه ، وعليه يكون المهدي والشيوعيون - حسب النص - أمل البلد ومخلصيه من المشاكل التي تعاني منها ، وان كانت هذه الدلالة (أي المهدي المخلص) قد تحققت جزئياً في الدلالة المباشرة للرواية إذ تجسد في المحكمة مدافعاً عن الحسين وكاشفاً حقيقة هيئة المحكمة ورئيسها .

أما ابنه الحسين فهو رمز للشيوعي مهضوم الحقوق مغتصبها الوريث الشرعي للبلد وحكمه ، وهو بذلك شهيد طغيان الآخرين وجبروتهم رغم أنه رفض الشبه بينه وبين الحسين بن علي

كرم الله وجهه أكثر من مرة في بداية ووسط ونهاية الرواية ، بل وافتخر بالعصر الذي ينتمى إليه وهو القرن العشرون يتصل بهذا أن تكون «عيشة المنورة» وخيرة وكريمو و«الآخرون» الدليل القاطع على حقيقة «المسؤولون» فهم المغتصبون ، الحكام غير الشرعيين ، خائني العهود والأمانات . لأنهم مصدر كل البلايا والشرور والمآثم التي تطبع حياة الطبقات الكادحة بشرائحها الاجتماعية المختلفة لأنهم سلبوها كل ما كان يجب أن تتمتع به واستأثروا دونها بالخيرات والمنافع والمزايا .

ويمكننا قراءة الشخصيات ايديولوجيا قراءة أخرى ، تتمثل في أنها بأسمائها هذه رد على من يصف الشيوعيين بالالحاد فأسماؤهم إسلامية وذات ايحاءات عقيدية في هذا المجال . وهو ما دأب الشيوعيون الجزائريون على تأكيده والاشارة أكثر من مرة الى أن شيوعيتهم لا تتعارض واسلاميتهم ؟ وفي سياق الدلالة الايديولوجية أيضاً ندرج الرموز السابقة الإشارة إليها . فالمستشفى التجميلي هو الأداة الثقافية الفكرية والاعلامية بصورة عامة التي يرى المؤلف أنها تقوم بالمسخ الفكري وغسيل الأدمغة بنشرها لايديولوجية الحكام المتعارضة والاتجاه السابق ، عبر العمليات التي تقوم بها كتبديل الأعين والآذان والانوف والأمخاخ وبرمجة هذه الأخيرة وقولبتها وفق رؤيته وتصوره وبالتالي فإن كل ما يتعارض والفكر السلطوي يعتبر في رأي أصحاب القرار «ورما بالمخ» تجب إزالته ... والكسوف هو الثورة ... الى غير ذلك من الرموز التي تواترت في الرواية كالأنجم (الشهداء) ، ليل المدينة المظلم (الواقع) ...إلخ . هنا نطرح تساؤلين :

- ألا يتعارض هذا التوظيف مع الجانب المادي الجدلي للشيوعية ؟ سيما وأن الحسين والمهدي رمزان اسلاميان خالصان ذوا دلالة روحية واضحة ؟

- الى أي مدى يحق لايديولوجية ما (السطو) على رموز ايديولوجية أخرى سيما اذا ما كنت بحجم ومنزلة الإسلام ، مع أن الموضوعية تستدعي - على الأقل من وجهة نظرنا نحن كمسلمين - عدم مساواة الإسلام ، الرسالة السماوية الربانية بإديولوجية وضعية ؟

نلاحظ إذن أن شخصيات هذه الرواية لم تبق معارضة فقط للواقع السياسي القائم بل أنها أطرت معارضتها ضمن سياق ايديولوجي معين ، كما سبقت الإشارة الى ذلك . وهذا عكس ما نلاحظه على شخصيات رواية (الفجوة) لحفناوي زاغر[23] .

الفجـــوة :

تسرد علينا هذه الرواية بضمير المتكلم هي أيضا ، لذا ينطبق عليها ما ينطبق على الرواية السابقة في هذا المجال . الراوي/الشخصية هو عمرو بن ناجي الصلعمي السجين السياسي بالامارة – قطر عربي ما – دونما تحديد – التي هي جزء من السلطنة المتمدة الأطراف – الوطن العربي – الذي ينطلق من حاضره (السجن) مستحضراً مختلف حلقات حياته الماضية مركزاً على ما أوصله الى هذا الحاضر باستعراضه لعلاقاته بمختلف الشخصيات ، فقد كان في صباه يعيش وسط عائلته المتكونة من والديه وإخوته عهد إليه أبوه ذات ليلة بأمانة أمره بإيصالها الى الحاج إبراهيم في الطرف الآخر من المدينة فخرج في سبيل ذلك . إلا أن زلزالا عنيفا هز أركان البلدة في تلك الأثناء لم يمكنه من القيام بالمهمة بل وأكثر من ذلك ذهب ضحيته كل أفراد عائلته في جملة من ذهب ضحيته فتشرد أياما وليالي قبل أن يهاجر بعد يأسه من العثور عليهم . قضى بالغربة سنوات تابع دراسته خلالها مستعينا في بدايتها على القيام بأموره بما كان والده قد عهد به إليه . ثم يحمله الشوق والحنين على العودة الى البلد ثانياً فيكون أضيع فيه من الأيتام في مأدبة اللئام لأن الأمور تبدلت والأحوال تغيرت المدينة ، الناس ، الحكام ، العلاقات ، لم يبق أي شيء على عهده به ينزل بنفدق في المدينة ثم يسرع في البحث عن عمل يعثر على «مريد» ابن الحاج إبراهيم فيفرح به أيما فرح ، يأخذه الى والديه فيفرحان به هما أيضاً ويزداد عجبها . بحكايته وحكاية المال الذي أعطاه له والده طالبا منه ايصاله لهما ثم يبدأ إثر ذلك في اكتشاف الواقع المزري للمدينة وسكانها نتيجة استبداد الأمير نافع النغل وحاشيته التي عاثت في الأرض فساداً مستأثره بالخيرات والمنافع تاركة الشعب يعيش المعاناة بكل أنواعها ومسلطة عليه كل المظالم التي تخطر ببال بشر . الأمر الذي يدفع بالكثيرين الى التفكير في الثورة والتحضير لها مثل منذر ورامي وفائق وكلمون وغيرهم الذين يتعرف عليهم عمرو بواسطة مريد الذي يشتغل نادلاً بمقهى اتخذوه ملقى لهم . يتعرف في الوقت ذاته على «سهل البراغماتي النفعي أحد أفراد الحاشية» . – وإن لم يكن في الواقع سيئاً الى حد كبير – الذي يعرفه على «نهى» المطلقة الثرية الجميلة التي تفتح له هي الأخرى الطريق لأن يصبح السكرتير الخاص للسيد رزق النغل مستشار الأمير نافع ، الشيء الذي يدفعه الى ترك مهنة الحارس الليلي بالثانوية التي كان من المفروض أن يشتغل بها أستاذاً للمؤهل الذي يحمله . يسقط في غرام «أنوار» إبنة رئيسه وهي فتاة جلية جدا مثقفة عاقلة . كاملة خُلقاً وخَلقاً تعني اسمها حقا وكأنها ليست من ذرية النغل

إطلاقا ، بعد فترة تلقي عليه الشرطة القبض بعد منذر ورامي وفائق لتورطه معهم ، ويلبث في السجن الى آخر أيام حياته حتى أنه يرفض الافراج عنه ، لأنه لم يبق له شيء في المدينة أو مكان يذهب إليه .

ما يهمنا في هذه الرواية هو تفصيلها في وصف الفجوة بين الحكام والمحكومين - ومن هنا جاء عنوانها - والدلالة الرمزية الصارخة لأسماء شخصياتها على غرار شخصيات الرواية السابقة . سواء أكان ذلك في صف شخصيات الحكام والحاشية أم في صف شخصيات المعارضة ففي الصف الأول نجد أن لقب أفراد الأسرة الحاكة هو «النغل» وهي لفظة منحطة الدلالة ، إذ تعني الفاسد ، فاسد النسب ولد الزنا أو اللقيط[24] ، وهذه في الواقع دلالة تتماشى والصفات التي أسبغها المؤلف على أفرادها ذلك أن المفاسد والمظالم والمآثم وكل الشرور التي اسندها إليها المؤلف لا يمكن أن تؤتى إلا من طرف شخص لا أصل له وحتى أن حمل بعض هولاء أسماء ذات دلالات راقية لغويا ، فإنها في المستوى الوظيفي والوصفي التأهيلي في الرواية معاكسة تماما لمعناها الأصلي ، كما هو الحال بالنسبة للأمير نافع مثلا . فليس فيه من النفع لشعبه شيئاً بل أن كل ما يصدر عنه ضر أما في صف المعارضة فنجد منذر ورامي وفائق وكلمون ومريد وسالم ومجدي وغيرهم . وكل منهم يعني إسمه فعلاً . ويمثل جانباً من جوانب المعارضة . فهي المنذرة المفتحة لأعين الشعب وهي الرامية رامية الحكام بسهام ثورتها ، وهي الفائقة لمكر السلطة ودسائسها ، وهي المريدة للإنعتاق من البطش والجبروت وهي السالمة من المساوئ الى غير ذلك .

نرى إذن أن الشخصيات في الروايتين تنقسمان الى صفين متعارضين أخيار طيبون ، وأشرار خبثاء فالأخيار الطيبون هم ممثلو المعارضة وعامة الشعب المغلوب على أمره ، وإن كانوا من الناحية الوظيفية فاعلين غير منجزين لبرامجهم المتمثلة في وضع حد للسيطرة السلطوية القائمة على القوة والتمكن من وسائلها ، فانهم من حيث المؤهلات والصفات واعون للحقيقة ، صلباء معتدون بأنفسهم ، صعبوا المراس ، قويو الشكيمة ، مما يجعلهم فاعلين محتملين دائمين قد يأتي دورهم في يوم من الأيام ليصبحوا فاعلين منجزين لهدفهم المتمثل في التحرر والانعتاق من السيطرة .

أما الأشرار الخبثاء فهم من الروايتين الحكام وحاشيتهم . فهم المستغلون المتسلطون الظالمون المنحرفون ، الى آخر ما اغدقه عليهم المؤلفان من الصفات القبيحة ابتداء من الأسماء الشخصية لممثليهم وشخصيات كل صنف تكمل بعضها بعضاً .

من هنا نلاحظ أن الدلالة الحقيقية للشخصيات في الروايتين تستند على أسمائها فتكون

سماتها الدلالية معطاة سلفا لا تزيد مكوناتها الأخرى عن تلك الدلالة شيئاً ، سوى تأكيدها وتأصيلها ، سواء في المستوى الوظيفي أو في المستوى التأهيلي إلا أن ما تجدر الإشارة إليه هو المثالية المبالغ فيها الى حد الإفراط لهذه الشخصيات - كل في صنفه - وعلى الخصوص بالنسبة لشخصيات المعارضة ، الحسين بن المهدي ، عمرو . وقد يعود هذا الى نمطيتها وجاهزيتها القبلية في ذهن المؤلف ، رغم أن شخصية عمرو هذه ضعيفة ووضعية حالية غير منجزة إطلاقاً ، بل وتنهار أمام المحقق وتوقع قسرا على اعترافات لم تدل بها لا لشيء إلا للعذاب الذي اخضع له منذور وفائق ورامي وقضوا تحته .

وخلاصة القول أن الروايتين دواتاً دلالات سياسية خفية تمجد المعارضة وتهاجم السلطات ناعتة إياها بكل المآثم والشرور والأوزار والتبعات وهي إن أعطت للمعارضة بعدا إيديولوجيا في الرواية الأولى ، فانها أبقتها محايدة في الرواية الثانية . لتجد فيها كل معارضة ذاتها مهما كان لونها .

لن ننهي الحديث عن الروايتين دون ابداء ملاحظات مختصرة عن أسلوبها فقد حاول الكاتبان تحليل ورصد الأحوال العامة عبر أحوال الشخصيات المعارضة وتصرفات الشخصيات الحاكمة ومحيطها لذلك شقت النص تفاصيل كثيرة وعبرته جزئيات اعتمدت في كثير من الحالات الوصف والخطابة . والمقاطع الخطابية المباشرة على امتدادهما هو مما أدى الى انزلاقها الى المثالية المفرطة التي أشرنا إليها سواء أكان ذلك على مستوى المضمون أم على مستوى اللغة ففي رواية «ضمير الغائب» نجد لغة وسطا بها ألفاظ عامية كثيرة مشرقية (شامية) ومغربية (جزائرية) وألفاظ أخرى منحطة حد الابتذال ، وتوظيف لأغنيات ومواويل شعبية مشرقية ومغربية أيضاً أما لغة رواية الفجوة فهي لغة راقية ، بها ألفاظ غريبة ونادرة نحس وكأن المؤلف يتعمدها مما يصل برقي هذه اللغة الى حد الابتذال هي الأخرى ، ختاماً نبيح لأنفسنا إطلاق هذا الحكم العام ، فنقول أن الروايتين عاديتان ليستا من أحسن ما كتب صاحباهما سيما رواية : ضمير الغائب للأستاذ الأعرج واسيني .

الهوامش

(☆) بحث ألقي في الملتقى العلمي الأول الذي نظمته جامعة تونس الأولى أيام 23 الى 1994/11/26 بمناسبة مرور 30 سنة على تأسيس «مجلة حوليات» الجامعة التونسية .

(2) Hamon (philippe) pour un statut semiologique du Pèrsonnage,«in Poétique du recit» collec. point. ed du seuil. Paris 1977, p. 115.

(3) Entreverne, groupe d, analyse semiotique des texte, P.U.F Liyon/France 1977, p. 99.

(4) صحراوي (إبراهيم) الخطاب الأدبي لدى جرجي زيدان ، تحليل رواية جهاد المحبين ، أطروحة ماجستير الجزائر 1993 ، معهد اللغة والأدب العربي (مخطوط) ، ص108 .

(5) ألقي هذا البحث أيضاً في الملتقى العلمي الدولي الذي نظمته جامعة تونس الأولى أيام 1994/11/26.25.24.23 بمناسبة مرور 30 سنة على تأسيس مجلة حوليات الجامعة التونسية».

(6) واسيني (الأعرج) «ضمير الغائب أو الشاهد الأخير على اغتيال مدن البحر» ، مطبعة اتحاد الكتاب العرب ، دمش/سوريا 1990 .

(7) زاغز (حفناوي) «الفجوة» رواية ، دار المعارف للنشر والتوزيع سوسة/تونس 1992 .

(8) هو (غراهام) ، مقالة في النقد ، ترجمة محي الدين صبحي ، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ، دمشق/سوريا 1973 ، ص83 .

(9) المرجع السابق ، ص83 .

(10) Hamon philippe, pour un statut semologique du prsonnage, p. 10.

(11) تودوروف (تزفتان) نقد النقد ، ترجمة د/ سامي سويدان .

(12) Reig (daniel), Homo Orientaliste, (Islam-Occident) Maisonneuve et larose, paris.

(13) Genette Gérard, Figures, ed du seuil, Paris.

(14) Entreverne, groupe d, analyse sémotiotique des texte, P.U.F Liyon/France 1979.

(15) ابن منظور (محمد بن مكرم) ، لسان العرب ، كتاب النون فصل الحاء .

(16) المرجع السابق ، كتاب الياء فصل الهاء .

(17) معلوف (لويس) المنجد في اللغة ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ، مادة : مري .

(18) Hamon Philippe, pour un statut semiologique du personnage poétique du recit, collec point, ed seuil, Paris, p. 142.

(19) نفس المرجع ، ص142 .

(20) Entreverne, groupe d, analyse sémiologique des taxte.

(21) نفس المرجع .

(22) Hamon philippe, pour un statut sémiologique du personnage, p. 118.

(23) زاغر (حفناوي) ، «الفجوة» دار المعارف للطباعة والنشر ، سوسة/تونس 1992 .

(24) معلوف (لويس) المنجد في اللغة ، مادة : نغل .

مصادر البحث ومراجعه :

أ - المصادر :

1 - واسيني (الأعرج) ضمير الغائب أو الشاهد الأخير على اغتيال مدن البحر ، مطبعة اتحاد الكتاب العرب ، دمشق/سوريا 1990 .

2 - زاغر (حفناوي) الفجوة ، دار المعارف للنشر والتوزيع ، سوسة/تونس 1992 .

ب - المراجع :

1 - ابن منظور (محمد بن مكرم) لسان العرب ، دار صادر ، دار بيروت للطباعة والنشر ، بيروت/لبنان 1986 .

2 - معلوف (لويس) المنجد في اللغة ، المكتبة الكاثوليكية ، الطبعة السادسة والعشرون ، بيروت/لبنان 1975 .

3 - هو (غراهام) مقالة في النقد ترجمة محي الدين صبحي ، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ، دمشق/سوريا 1973 .

4 - تودوروف (تزفتان) نقد النقد ، ترجمة/سامي سويدان ، دار الشؤون الثقافية العامة ، وزارة الثقافة والاعلام ، بغداد/العراق 1986 .

5 - Entreverne, groupe d, analyse semiotique des texte, P.U.F Liyon/France 1977.

6 - Hamon (philippe) pour un statut semiologique du Pèrsonnage,«in Poétique du recit» collec. point. ed du seuil. Paris 1977.

7 - Genette Gérard, Figures, ed du seuil, Paris.

(12) Reig (daniel), Homo Orientaliste, (Islam-Occident) Maisonneuve et larose, Paris 1988.